الفصل الثاني والعشرون

اليوم الرابع عشر من شعبان المعظَّم

وفقاً للتقويم الإسلامي، يوافق اليوم السابع المشؤوم من أيلول/ سبتمبر سنة 1191م اليوم الرابع عشر من شعبان المعظَّم، الشهر الثامن من السنة الذي يسبق شهر رمضان المبارك، أقدس شهور السنة، وهو شهر الصوم والتجديد الروحي لا الحرب. وما من شك في أنّ صلاح الدِّين المدافع عن الدين والإيمان كان متنبّهاً لاقتراب الشهر المقدّس. لقد حان الوقت لمعركة كبرى، أكبر معركة في حياته، معركة حطين الثانية. فعلى هذه الأراضي، لا بد من الدفاع عن القدس، هذه المدينة المقدسة التي لا يفصله عنها أكثر من خمسين ميلاً. لم يعد باستطاعته تأجيل موعد المواجهة. لقد حان وقت الانتصار الحاسم والنهائي لجهاده.

عسكر الصليبيون على مقربة من مصب نهر العوجاء، وحال مستنقع عريض مُغلق يعرف باسم بركة رمضان دون حصول أي هجوم من الأراضي الداخلية فحمى المعسكر، ولذلك اضطر صلاح الدِّين لتأخير الهجوم إلىٰ أن يتحرك الصليبيون ويدخلوا منطقة مفتوحة. أضرَم الصليبيون نيرانهم فجراً،

وقوّضوا خيامهم، ورحلوا على صوت البوق متجهين نحو قلعة أرسوف المشيّدة بالحجر الرملي على مسافة خمسة أميال جنوباً. في البداية، عبروا منطقة رملية تتخلّلها الكثبان ذات تربة ناعمة رقيقة منعت جياد المسلمين السريعة من بذل أقصى جهد. وظهر، على بعد ميل من نهر العوجاء، خطّ من الهضاب المنخفضة الارتفاع الموازية للطريق الساحلية. وتمتد هذه الطريق الصلبة حتى البساتين خارج أرسوف.

توقّع ريتشارد هذه المواجهة الهامة طوال عدة أيام، ولذلك كان جنوده متيقظين تيقظاً أقصى. واستعدّ الملك للأميال الحاسمة المقبلة فأعاد تنظيم جيشه في خمس فرق محاربة. أُلْحق بفرسان الهيكل في طليعة الجيش فيلق من التُركُبُلّي[1]، وهم فرسان محمّلون بأسلحة خفيفة سريعو الحركة، مدرّبون تدريباً خاصاً لصدّ هجوم الغزاة المسلمين على أحصنتهم اليمنية الرشيقة. عقب فرسان الهيكل جنود من أكيتان أي من رعايا ريتشارد الأوروبيين، بالإضافة إلى جنود من أنجي وبواتييه وفيلق من مقاطعة بريتانيا الفرنسية. خضعت هذه الفرق لقيادة الملك غي الذي كانت براعته العسكرية في طور التحسّن. ومن بعدها، مشى النورمانديون والإنكليز حماة راية الحرب. وفي المؤخرة جاء الفرنسيون مدعومين بالإسبتاريين المخيفين. وقد اختلطوا بعدد من البارونات السوريين المحليين تحت قيادة هنري دو شامباني القدير، ابن عم ريتشارد وبرفقة الكونت الفلمنكي جايمس دافين، أكثر المحاربين شهامة وكياسة في الجيش الأوروبي كله، ما خلا ريتشارد. استطلع ريتشارد ودوق برغنديا، نائب الملك الفرنسي فيليب، صفوف الجنود واستحثّوهم على التضامن والاندماج. ووصفهم أحد المؤرخين بقوله إنّ الرجال كانوا ملتزمين إلى حد لا يمكن أن

(1) التركبلّي: فرقة من الفرسان الخفيفي الحركة، والخفيفي السلاح، والذين يركبون خيولاً سريعةً أيضاً. ويبدو أنّ البيزنطيين والأيوبيين والصليبيين اقتبسوا نظامها من الأتراك السلاجقة بعد وقعة ملازكرد سنة 1071؛ قارن بمفرّج الكروب 2/ 149.

ترمى تفاحة إلاّ أن اصطدمت برجل أَو بحصان قبل السقوط على الأرض.

عندما لاح صلاح الدِّين من موقعه الحربي على الأرض المرتفعة، أتاح للصليبيين فرصة الزحف عدة أميال على طول الطريق قبل إطلاق العنان لهجومه. انصبّ الخيّالة المسلمون من وراء أشجار سنديان الغابة. وقُدِّر عددُهم بين ألفين وعشرة آلاف فارسٍ ورام. ولكنّ الصليبيين لحظوا لون بشرتهم بقدر ما لحظوا عددهم. لقد كانَ البدو أصحاب البشرة السوداء، «الأكثر سواداً من السُّخام كما لو أن الله لعنهم وجعلهم جنساً متوحشاً» يزرعون الرعب الأكبر بين صفوف المسيحيين. أتى بدو الصحراء في الطليعة وتبعتهم قوة منظَّمة منصاعة لأوامر القيادة انقسمت إلىٰ أفواج وفرق خاصَّة، وكان بالإمكان رؤية الشعار المخصّص لكل وحدة على الألوية الصفراء المشقوقة كذيل الخطّاف والخفّاقة على رماحهم. وإلىٰ جانب الغبار والرّماح المثلّثة الشكل والوجوه السوداء المرعبة، انطلقت جَلَبة مخيفة من أفواه المهاجمين المسلمين؛ كانوا يستصرخون الله. واخْتلطت أصوات الأبواق بقرع الأجراس والضرب على الدفّ. مشى السلطان على صهوة جواده بين سريّة الخيالة، مطلقاً عبارات التشجيع على المضي قدماً في سبيل الله، ومكتفياً لحمايته الخاصة بحاجبين يقودان حصاناً بينهما تحسّباً لإمكانية مصرع جواده. ولكنّهما كانا عاجزين عن التصرّف بأي شكل من الأشكال حيال السهام التي كانت تئزّ على مقربة منهم.

وخلافاً لما حصل في معركة حطين، حمى البحر هذه المرّة مؤخرة الجيش المسيحي، بحيث استحال على الخيالة المسلمين على الأقل تطويق الجيش. لا بل إنّ الهجوم دفع الجيش المسيحي إلىٰ رصّ الصفوف وصولاً إلىٰ درجة الاختناق تقريباً. وحدث ذلك على وجه الخصوص عندما أمر صلاح الدِّين قواته الرئيسية بالهجوم.

وقعت الوطأة العظمى من الهجوم على مؤخرة الجيش، ما اضطرّ

الإسبتاريين والفرنسيين على التجمّع والتراصّ. قوِي ضغط الهجوم حتى أصبح لا يطاق. وكتب شاهد عيان يقول: «لقد طوّقت أعداد العرب الكبيرة شعبنا القليل العدد بحيث حالوا دون إمكانية فرارهم حتى وإن رغبوا في ذلك. وبدا أنهم كانوا يفتقرون لما يكفي من الشجاعة لمقاومة هذا العدد الكبير من الخصوم. كانوا منحصرين مثل قطيع من الخراف بين فكّي الذئب، ولا شيء غير السماء من فوقهم والعدو من حولهم».

أرسل القادة لريتشارد يبلغونه بعدم قدرتهم على المزيد من الصمود. وأعلموه بوجوب شن هجوم. لكنّ ريتشارد لم يوافق على طلبهم فقد كان يعلم علم اليقين العواقب المشؤومة التي قد تنجم عن هجوم متهوّر. وعلى الرغم من الضغوطات، تابع خط الجنود المرصوص زحفه جنوباً نحو أرسوف، وأحسّ ريتشارد بخيبة أمل المسلمين لعجزهم عن كسر هذا الخط. وزاد شعور المحاربين المنحصرين بأنهم «شهداء المسيح» لوجودهم في خضمّ هذه المِلْزَمة المنغلقة عليهم، ويستشهد كاتبهم فيما بعد بالمزمور 129 لوصف حالتهم: «على ظهري حرث الحُرّاث. طوّلوا أثلامهم».

وعلى الرغم من قدرة الدروع والأغطية اللبادية على مقاومة السهام العديدة، فإن الضغط الأكبر وقع على كاهل الفرقة المهاجمة. لقد بدا للصليبيين أنّ «وحشية الوثنية كلها قد اجتمعت يداً واحدة» فيما انصهرت روح الشباب المزهرة في جسد واحد «كَمَثل حبوب القمح على سنبلتها».

تفاقم الغضب والإحباط في صفوف الإسبتاريين وتضرّع سيدهم غارنييه دو نابلس Garnier de Nablus مستنجداً بالقديس الراعي للصليبيين جميعاً. لعلّ القديس جورج يعود ثانية ليقدم يد العون للصليبيين كما سبق وفعل في الحرب الصليبية الأولى في معركة أنطاكية سنة 1098م. «أيها القديس جورج العظيم. هل ستتركنا كي يبثّوا في صفوفنا الفوضى والبلبلة؟ إنّ المسيحية بأكملها عرضة

للانهيار لخوفها من الرد على هجوم هذا الجنس المجرّد من الإيمان». وشقّ الزعيم طريقه عبر الجلبة نحو الوسط حيث وجد الملك ريتشارد.

وصرخ بصوت مرتفع للتغلّب على الضجيج فقال لقائده: «مولاي، إنّ العدوّ يُحْكم قبضته حولنا بمزيد من العنف. ونحن عرضة لخطر ارتكاب جرم مشين أبدي، كما لو كنا لا نجرؤ على الردّ على ضرباتهم. كل واحد منا يوشك أن يخسر حصانه. لم علينا تحمّل هذا العار لفترة أطول؟» وأجابه الملك: «صبراً أيها السيّد الطيب. عليك أن تصدّ هجومهم. لا يمكن لأي كان الوجود في كل مكان في وقت واحد». يجب على خط الجنود الصمود ومواصلة الزحف حتى بلوغ برّ الأمان عند أسوار أرسوف. وحده انضباط الرهبان العسكريين يمكّنهم من تحقيق هذا الهدف. وفي حال شن هجوم، ينبغي أن يصدر من كل المواقع في آن واحد، على طول الخط من أوله إلىٰ آخره، وقد وضعت له خطة.

لم يشعر غارنييه دو نابلس بالعزاء فبقاؤه ساكناً بلا حراك يضرب في وجه الحائط بقسمه كراهب عسكري وبولائه لمسقط رأسه سورية. عاد إلىٰ مؤخرة الجيش وهو ما فتيء في حالة من الاهتياج والاضطراب الشديدين فوجد أنَّ الكرب قد تفاقم عن ذي قبل وأن فرسانه يوشكون على إعلان العصيان والتمرّد.

وصرخوا في وجه قائدهم: «لماذا لا نهاجمهم بكل قوّتنا؟ سنوسَم بالجبن إلىٰ الأبد. لم يلحق بأي جيش يواجه كفاراً هذا القدر من العار! سنكون عرضة لفضيحة مستديمة ما لم ندافع عن أنفسنا. وتتفاقم الفضيحة بتأخير المواجهة». لم يسع القائد الإجابة فقد كان متضامناً مع هذا الشعور».

سرعان ما خرجت الأمور عن السيطرة. مورس الضغط للمرة تلو الأخرى على الجناح الأيسر إلىٰ أن انفجر. واتفقت قيادة ريتشارد العليا مسبقاً على إشارة معيّنة تطلق هجوماً منظّماً منسّقاً للخط بكامله عند فقدان الأمل وإن

اقتضت الحاجة. وهكذا تقرّر بدء الهجوم عند سماع صفرتين مميزتين من البوق من القسم الأمامي من الخط ووسطه وآخره تكونان متناسقتين وحادتين بحيث تسمعان رغم الضجيج والجلبة. وفي أفضل الأحوال، لن يكتفي هذا التيار المندفع من الخيالة بإرباك المسلمين وإلحاق هزيمة منكرة بهم؛ بل سيسحقونهم ويقضون عليهم عن بكْرة أبيهم. ولكن عوضاً عن ذلك، فقد حصل الإنفجار تلقائياً.

توقّع صلاح الدّين، انطلاقاً من موقعه العالي المطلّ على الجيش، حصول هذا الانفجار. وفي هذا الصدد، دوّن كاتبه: «شكّل الجيش وحدة موحّدة وقرّروا المباشرة بالهجوم لقناعتهم بأنّ إنقاذهم يتطلب جهوداً جمّة. ولكنّ الأمور لم تحدث على هذا المنوال. فقد انطلقت الشرارة من فارسين أحدهما مارشال من الإسبتاريين وثانيهما فارس فلمنكي وصديق مقرّب لريتشارد. لقد اخترق، دون إذن، خط الحماية الذي توفره كتيبة المشاة، سائلين القديس جورج العون وبدأوا بشن الهجوم على المهاجمين. وعلى الفور، تَشَرْذَمَ خط المشاة وتفرّق، وشنّ باقي الإسبتاريين الهجوم. ولم يجد القائد هنري أوف شامباني أمامه خياراً آخر إلاّ أن يحذو حذوهم تماماً كما فعل جايمس دافين. انتشر هجوم حرس المؤخرة انتشاراً سريعاً نحو الوسط ومن ثم إلى طلائع فرسان الهيكل. وبدا الوضع كأن هذه الاستراتيجية الدينامية الموفّقة كانت مخطّطة. وعلى غرار كتيبة مشاة المؤخرة، انقسمت هذه الكتيبة في الوسط ودون أن يرفع الملك يده بإشارة أو يطلق صفيراً واحداً من البوق، شنّت فرقة الخيالة هجوماً شاملاً كما لو كان متفقاً عليه من قبل.

كانت هذه الاندفاعة اجتياحاً. فتفرّق المسلمون ودبّ الذعر والارتباك العام في صفوفهم. وهُرع كل المهاجمين من الخط الأمامي، والذين كانوا يمارسون ضغطاً شديداً وترجلوا عن أحصنتهم. «مَثَلُ رؤوسهم الملتحية الكثيفة الشعر كَمَثل سنابل القمح المجزوزة في موسم الحصاد». وفرّ الجنود وراءهم

والفوضى تعمّ صفوفهم. وفي وصفهم، كتب شاهد عيان مسلم ما يلي[1]: «واتفق أني كنت في الوسط. وعندما فرّت تلك الكتيبة بفوضى عارمة، خيّل لي إمكان اللجوء للجناح الأيمن الأقرب لي. ولكن ما أن أدركته حتى وجدت الذعر يسود صفوفه أيضاً وأفراده يلوذون بالفرار بسرعة تفوق سرعة الآخرين. فالتجأت للجناح الأيمن ولكني وجدت، عندما لحقت بهم، أن البلبلة التي يعانونها أسوأ بعد مما هي عليه في الجناح الأيسر». والتفتَ (بهاء الدين ابن شداد) أخيراً باحثاً عن الموقع الذي كان يجدر بحراس صلاح الدِّين الشخصيين أن يشكِّلوا عنده نقطة تجمّع، ولكنّه لم يجد سوى سبعة عشر رجلاً يقرعون الطبول قرعاً قوياً غير ذي جدوى. واستناداً لرواية مسيحي، كان بالإمكان رؤية المسلمين يلوذون بالفرار في مختلف الاتجاهات على مساحة ميلين. وذكر الكاتب المسيحي بجذل إينياد فرجيل: «الخوف وحده كان كافياً لكي يعطي أرجلهم أجنحة».

شهدت مقدمة خط الإسبتاريين مجزرة فظيعة. وغطّت جثث المسلمين، بالآلاف على الأرجح، رمال مساحة شاسعة انْتَشَرت وسط جثث الأحصنة والجِمال. لقد تحوّل شعور الإحباط والانحصار الذي غمر الرهبان العسكريين إلىٰ رغبة وحشية بالثأر. وتخلّل الجثث المجزّأة والمقطوعة الرأس مجموعة من الأسلحة كالسيوف الحدباء والرِّماح والأقواس والنّشابات، بأعداد كافية لملء عشرين مركبة. وفي فترة لاحقة، افتَخر ريتشارد بتمكُّن ثلث رجاله من القضاء على جيش صلاح الدِّين العظيم.

فور رؤية ريتشارد للهجوم التلقائي، سارع على صهوة فحله الكُمَيْت القبرصي المسمّى فوفيل زاعقاً عبارات «ساعدنا يا رب!» و«أنقذ الضريح المقدّس». هرول من الوسط إلىٰ مقدمة الإسبتاريين إلىٰ اليسار وساهم مساهمة

(1) هو بهاء الدين ابن شداد؛ قارن كتابه، ص 183 - 184.

كبيرة في أعمال الذبح. دوّن الكاتب في وصفه لهذا الحدث لاحقاً: «أخذ الملك العظيم الجبّار يضرب المسلمين في كل الاتجاهات. لا أحد كان يستطيع النجاة من قوة ذراعه. كلّما أدار وجهه، شق طريقاً واسعةً له بسيفه المسلّط. وظلّ يتقدم بفضل ضربات سيفه المتكرّرة يصرع المسلمين كمثل مِنْجل الحصّاد».

وعلى مسافةٍ من هذا الموقع، وقف صلاح الدِّين كالقَصَبة عاجزاً عجزاً شبه كلي حيال تدفق الهاربين نحو الهضبات بأسرع ما يمكنهم. وأمرّ بجرّ بعض الفارين وعرضهم أمامه، في محاولة يائسة، من أجل توبيخهم وتحميلهم الإثم وتهديدهم بعقوباتٍ فظيعة، ولكنه سرعان ما تخلّى عن هذه المحاولة لعدم جدواها. توالت الضربات على الطبل مستديمةً حزينةً خاوية؛ بغيةَ تجميع الجنود وإعادة تنظيمهم ولكنّها اقتصرت على زيادة الجلبة صخباً.

عندما بلغ ريتشارد حافة غابة أرسوف، على بعيد ميل من خط كتيبة المشاة، أوقف الهجوم وحظر على فرسانه دخول الأحراج. لقد دفع الصليبيون، مرات عديدة في الماضي، ثمناً باهظاً للحاقهم بالعدو على مسافة أبعد مما كان الوضع يستلزمه. وخلال هذا التوقف، أظهر ريتشارد مجدداً تحفّظه ونضوجه بوصفه قائداً عسكرياً بالإضافة إلىٰ براعةٍ في القيادة سبقت زمانه. إنّ تحفّظه بالذات في فترة مبكرة من النهار أدّى فيما بعد إلىٰ الهزيمة المنكرة كما لو كان يعرف غريزياً أن الانحصار الذي مورس على الإسبتاريين سيدفعهم إلىٰ شنّ هجوم معاكس.

وعندما توقف الصليبيون، حذت بعض وحدات المسلمين حذوهم. وتمكن تقي الدين وهو ابن شقيق صلاح الدِّين والنائب السابق على مصر والذي يقال إنّه «كان يضمر الكره الشديد لدولة الفرنجة» من تجميع حوالي سبعمائة مقاتل تحت لوائه الوحيد ورمزه الغريب الذي كان يصوِّر بنطال النبيل الأيوبي. وأطلقوا، من خلف هذا البنطال، هجوماً معاكساً فعّالاً. وقد أكرهت

هذه المقاومة الشديدة ريتشارد على إطلاق هجوم ثانٍ وثالث إلىٰ أن فارقت قوات المسلمين الشجاعة الباقية، ومضوا نحو الجبال، وتوغلوا فيها.

ودوّن الكاتب العربي: «لقد اكتملت الهزيمة».

في تلك الليلة، عسكر الجيش الصليبي بأمان داخل أسوار أرسوف المهدّمة. لقد حقَّقوا أكثر الانتصارات اكتمالاً في حربهم الصليبية. وبالمقارنة بحوالي سبعة آلاف ضحية خسرها العدو بالإضافة إلىٰ حوالي ثلاثين أميراً مفقوداً، لم يتكبّد المسيحيون سوى عشر هذه الخسارة أي حوالي سبعمائة. ومع ذلك. وجدوا عزاءهم وسلوانهم لحزنهم على الضحايا التي سقطت في المزمور 34 الذي ينص على ما يلي: «كثيرة هي بلايا الصديق. ومن جميعها ينجيه الربّ». كما وجدوا في المزمور (78) تبريراً وجيهاً للقضاء على عدوهم حيث قال: «لم يحفظوا عهد الله وأبوا السلوك في شريعته».

جلس الصليبيّون، في تلك الليلة، حول نيران معسكرهم، كما جاء في سفر أيوب (31)، مكسورةً قلوبُهم دامعةً أعينُهم. فقد كان من بين الضحايا رجلٌ مميَّزٌ قُتل خلال الهجوم الذي شنّه تقي الدين في ظل رايته ذات البنطال. إنّه البارون الفلمنكي المعروف باسم جايمس دافين الذي ذاع صيته بالقدر ذاته لدى طرفي النزاع. لقد كانت هذه الشخصية النبيلة من بين موجة الدانمركيين والفريزيين الأولى التي قدمت إلىٰ الأرض المقدَّسة سنة 1189م. هو من اضطلع بمهام القيادة في حصار عكّا بعد انتزاعها من الملك غي غير الكفء، وهو من راقب عملية حفر الخنادق الدفاعية، وهو من تسلّم زمام الأمور حتى وصول رئيسه هنري أوف شامباني. كان مثالاً صارخاً للشهامة كما كان من المستفيدين منها.

أُسقط عن صهوة جواده خلال مناوشة جرت خارج أسوار عكّا، وأنقذه أحد الضبّاط بمنحه جواده الخاص وكان الموت جزاءه على عمله النبيل. أُعجِب العرب إعجاباً شديداً بالفارس الفلمنكي لشجاعته وبراعته في القيادة،

إلىٰ حد أنّه يقال بأن صلاح الدِّين أرسل في طلبه خلال الحصار وحاول رشوته للانضمام لصف المسلمين. ومَثَل الطويل للجانب العربي كَمَثل جايمس دافين للمسيحيين.

في الصباح التالي، تجرأت مفرزة من فرسان الهيكل والإسبتاريين بمعية فرقة من التركبوليين على العودة إلىٰ ساحة الحرب المخيفة بحثاً عن جثة البطل. ولم يصعب التعرّف عليه بين العدد الهائل من القتلى إذ تضمّن زيّه درعاً مميزاً من ستة خطوط عرضية باللونين الذهبي والأحمر. وفي نهاية المطاف، وبين الدماء والمعدّات المنتثرة، وجدوا جثته المشوهة منقوصة ذراعاً ورجلاً ومن حوله خمسة عشر قتيلاً من المسلمين. (وفيما بعد، عندما غدا البطل أسطورة، يقال إنه تابع القتال حتى بعد قطع ذراعه ورجله وإنه صرخ عند موته: «يا ريتشارد، اثأر لموتي!»). غُسل جسد البطل وكُفِّن وأعيد إلىٰ ريتشارد في أرسوف حيث حمله الملك ريتشارد والملك غي إلىٰ الكنيسة المكرّسة للسيدة ملكة الجنة في يوم عيد ميلادها. وأقيمت مراسم جنائزية مناسبة في الكنيسة.

كتب أحد المسيحيين في وصفه العبارات التالية: «كان شبيه هكتور في نصائحه الحكيمة، وشبيه أخيل في القتال، وفاق ريغولوس شهامة».

II

لغز عسقلان

في التلال، كان صلاح الدِّين في حالة من الحزن. لا عزاء فيها، ما كاد يأكل أو يتحدَّث مع أقرب معاونيه. وذكر كاتبه الذي حاول عبثاً إخراجه من حالة الكآبة[1]: «وكان في قلبه من الوقعة أمرٌ لا يعلمه إلا الله تعالى». لقد هُزِم السلطان للمرّة الثانية على يد هذا الملك الإنكليزي المرْعِب الذي لا يُقْهر.

(1) ابن شداد، ص 185.

شعر الجنود المسلمون بالانكسار وبصعوبة تمكّن صلاح الدِّين من إعادة ما يشبه الانضباط إلىٰ صفوفه المتفرقة.

كان صلاح الدِّين في حالة من الغليان. وعلى غرار ما حصل بعد سقوط عكّا، ساورتهم الشكوك مرة أخرى حيال كفاءة صلاح الدِّين في القيادة. بل إن بعض الجنود رفضوا، عقب سقوط عكّا، تنفيذ أوامره في الهجوم على العدو في طريقه إلىٰ حيفا. فكيف سيتصرّفون بعدما حصل في أرسوف؟ شكّ البعض في مقدرة السلطان على إقناع حلفائه في الداخل الإسلامي بإرسال جنودٍ يحلّون محلّ من قتل.

لقد ثَبتت استحالة هزيمة الغازين عندما يكونون محصَّنين بالخنادق، على غرار ما حصل في عكا. كما ظهرت استحالة التغلّب عليهم عندما يتحرَّكون في صفوف منضبطة، مع احتفاظهم بالهجوم المخيف كسلاح أخير يلجأون له. كان عليه أن يتفادى، بأيّ ثمن، معركة ضارية ويتبنّى مجدداً وسيلة موثوقاً بها تقوم على المضايقة والمناوشة والانسحاب المكروه، وتوحيد القوى مع قيظ الصحراء وتوسيع رقعة الأراضي الداخلية العربية توسيعاً كبيراً واستغلال الوقت لتثبيط عزيمة الغزاة.

بدت الطريق المؤدية إلىٰ القدس مفتوحة أمام الغزاة. ولم تكن يافا تبعد أكثر من عشرة أميال جنوباً. ومن هناك شُقَّت الطريق الرومانية القديمة مباشرة في الاتجاه الجنوبي الغربي مجتازةً برام الله واللطرون نحو المدينة المقدَّسة، على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً. كَمَن أمل صلاح الدِّين الوحيد في إبطاء حركة زحف العدو ما أن يتجه نحو الأراضي الداخلية. وبما أن الجيش المسيحي قد انفصل عن التعزيزات البحرية، وسيضطر لإطالة خطّ التموين وصولاً إلىٰ الساحل وسيشكِّل الماء مصدراً للقلق. وعلى المجموعة العربية محاصرة العدو والإغارة عليه دون مواجهته مواجهة مباشرة.

أدرك صلاح الدِّين، عند خروجه من حالة الكآبة التي كان فيها، أن

جيشه كان سليماً. وقد أعاد انتشاره في المناطق الريفية وقمم الجبال. كما أنَّه أخذ عدداً كبيراً من جياد فرسان العدو وبغال الإفرنج المرافقين لهم. صحيح أن عدد الضحايا من رجاله فاق عشر مرات ما تكبّده الصليبيّون في أرسوف، إلاَّ أنّ الجيش الصليبي فقد العديد من عناصره خلال حصار عكّا، نتيجةً لانتشار الطاعون وللحرب على السواء. تمكّن صلاح الدِّين من استبدال قتلاه بمقاتلين آخرين خلافاً لعدوّه. وقد تقترف قوى الخصم خطأ ما عند توغله في الأراضي الداخلية. أَو قد يحثونهم على شن هجوم متهوّر آخر، على غرار ما حدث منذ عدة سنوات خلت عند ينابيع الأُقحوانة. أَو قد يصطادهم السلطان بعد أن نضبت مياههم فيطوّقهم ويضربهم مرّة أخرى بسوط حطّين. واقتباساً لكلمات الملك ريتشارد في وصف صلاح الدِّين، فإنّ السلطان «أسد في عرينه، يخطّط بسرية لكمين في أعلى المواقع بغية طعن أصدقاء الصليب كالخراف المخصصة للذبح». كان بحاجة لدعم خط التموين الجنوبي الخاص وصولاً إِلىٰ مصر من خلال قاعدته الجنوبية في عسقلان ولإعادة تعزيز القدس عينها لضمان تطويق ريتشارد تطويقاً طويل الأمد ومؤلماً.

فيما بعد، ذكر الرواة المسيحيون أنّ صلاح الدِّين جمع قادته، عقب معركة أرسوف، وعنّفهم بقوله: «هل هذه منجزات جنودي الشجعان الذين أغدقت عليهم العطايا والهدايا؟ لقد كنتم، في يوم من الأيام، متبجّحين إِلىٰ حد كبير، أما اليوم فقد أصبح المسيحيون يجولون في أرجاء البلاد كلها بحرية فما من أحد يقاومهم. أين سيوفي ورماحي لأهددهم بها؟ أين النصر الذي وعدتم به؟ أين الكوارث التي تنبأ كتابنا المقدس بإنزالها بالكفّار؟ نحن وصمة عار في جبين سلفنا الشريف الذي سدّد ضربات عنيفة لجبروت الوقاحة المسيحية!».

أنهى صلاح الدِّين تقريعه المُسْهَب لرجاله، وساد الخجل والصمت إِلىٰ أن قطعه، ابن صلاح الدِّين الثالث والمفضَّل بين أولاده والبالغ الثامنة عشرة من عمره. تميَّز هذا المحارب الشاب الذي عيِّن، في تلك الفترة، والياً على حلب

بكلامه الهادىء وطباعه الجادة، كما اشتهر نبله وحلمه وإحساسه العالي بالعدل، وحبّه للشعر. ولذلك فقد كان لكلامه وزن كبير وقال بجدية: «أيّها السلطان المعظَّم، إن كلامك غير منصفٍ، فقد حاربنا بكل ما أوتينا من قوّة ضد الإفرنج. وهجمنا عليهم بقلوب لا تعرف الوجل، ولكنّهم مدجّجون بدروع لا يخترقها سلاح، ولذلك لم تسبِّب ضرباتنا أي أذى كما لو كنا نضرب في الصوّان. والأكثر من ذلكم، ففي عدادهم قائد يفوق أي رجل آخر وقعت عليه أعيننا قوةً. فمن على صهوة حصانه، يتقدم المهاجمين ويطيح برجالنا بالعشرات. ما من أحد يستطيع الوقوف في وجه هذا الرجل الذي يدعونه الملك ريك أَو التملُّص من قبضته. ملك كهذا وُلِد ليحكم العالم بأسره».

وللمفارقة، بثَّت هذه الكلمات الأمل في نفس السلطان. فقد استرجع صلاح الدِّين القدرة على تهديد الجيش المسيحي في غضون أربع وعشرين ساعة من هزيمته النكراء في أرسوف.

وبعد أن أمضى الصليبيّون يوماً أخلدوا خلاله للراحة ودفنوا بطلهم الصريع وأقاموا الصلوات تضرعاً لمريم العذراء، تحرَّكوا نحو الجنوب باتجاه حيفا. نشر صلاح الدِّين رجاله لقطع الطريق عليهم وأمطرهم بالسهام أملاً في حثّهم على شنّ هجوم جديد تكون استعداداته له أفضل من ذي قبل. ولكنّ الهجوم لم يقع. واصل الطابور المسير قُدُماً وانسحب صلاح الدِّين من أمامه. عُرِض المزيد من الأسرى المسيحيين على السلطان ومن بينهم المزيد من النساء بالزيّ الحربي الكامل. وفور الانتهاء من استجوابهم، قُطِعَت رؤوسهم دونما تأخير.

واستناداً إلىٰ أحد الاستجوابات، عَلِمَ القائد المسلم أنّ ريتشارد قرَّر المكوث بضعة أيام في يافا لإعادة بناء أسوارها، وحَفْر خنادقها الدفاعية، لكي يكون هذا المَعْقِل المدخلَ الجديدَ للأراضي المقدَّسة للحجاج اللاحقين.

ولكن أي مكان يزمع العدو قصده بعد يافا؟

لم تكن يافا أفضل ميناء بحري في فلسطين الساحلية. بل هذا هو حال عسقلان التي تبعد ثلاثين ميلاً باتجاه الجنوب. تمكّن الصليبيّون من الاستيلاء على هذا الميناء وطرد المسلمين منه سنة 1155م ولكنّ المسلمين استعادوه وفقدوه ثانية سنة 1154م إلىٰ أن أعاد صلاح الدِّين إليه سيطرة المسلمين عليه سنة 1187م. وبات ميناء الآن مركز صلاح الدِّين لربط جزأي الإمبراطورية العربية في مصر وسورية، كما صار قاعدته البحرية الأمامية. وفي حال انهزام صلاح الدِّين أمام ريتشارد وخسارة هذا الميناء، سينقطع الاتصال بين نصفي إمبراطوريته.

كانت عسقلان مدينةً جميلةً تحتلّ مكانةً كبيرة في قلوب المسلمين. فقد كانت تمثّل إحدى المدن الرئيسيَّة الخمس في فلسطين القديمة، والموقع الذي ذَبح فيه شمشمون غاضباً ثلاثين رجلاً، ومكان ولادة هيرود ويقع خارج المدينة وادي النمل حيث يفيدنا القرآن وفقاً لرواية ترمز لتعقيدات مسألة القوة والضعف، بأنّ سليمان نطق بلغة النمل وخشي أن يهرسهم عرضياً، ما حثّ نملةً للقول في الآية القرآنية من سورة النمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [سورة النمل: 18].

كان في الميناء مسجد يعود تاريخه إلىٰ أربعمائة سنة خلت يُعرف بمسجد عُمَر بالإضافة إلىٰ سوق رفيع المستوى صاخب يطلّ على ساحة من الرّخام. وعُرِفت المدينة بزيتونها وجُمَّيْزها ودود القزّ الشهير وكذلك بذباب الرمل الضارّة. حُصِّن الميناء المقوّس الشكل بجدار مزدوج وثلاثة وخمسين برجاً وأسوار خارجية منيعة. وَمَثَّل موقعها الاستراتيجي للعرب القدرة على تعبئة قوة عسكرية بسرعة من موارد مصرية تهدّد المملكة اللاتينية متى شاءوا. واسم المدينة يعني باللغة العربية «رأس سوريا».

لم تكن عسقلان الميناء الأمامي لشن هجوم على المملكة الصليبية ومركز الإمبراطورية العربية فحسب، بل مَثَّل أيضاً خط الدفاع الأوّل ضدّ غزو صليبي

لمصر وضدّ أي خطر يسلَّط على أقدس الأماكن الإسلامية. وفي هذا الصدد، لم يكن صلاح الدِّين واثقاً بأنّ ريتشارد يزمع التوجّه إلىٰ القدس عبر الأراضي الداخلية. فمن يستطيع أن يؤكّد، بغضّ النظر عن كلامه حول «الحرب الصليبية المقدَّسة»، بأن طموحاته ستقتصر على القدس؟ فقد يقرّر، عوضاً عن ذلك، مواصلة المَطْلب التاريخي الذي سعى إليه أجداده الأوروبيون للسيطرة على مصر وتنصيب نفسه مجدداً إمبراطوراً على منطقة البحر المتوسط، على غرار القيصر أغسطس والإسكندر الكبير.

لهذا الكلام، من وجهة النظر العسكرية، معنى منطقي. فإن تحرّك الملك الإنكليزي جنوباً على طول الساحل، ستدعمه قواته البحرية المتفوّقة، وعقب سيطرته على مصر، قد تصبح عسقلان مركزاً للحكم الجديد للشرق الأدنى كما كانت الإسكندرية لقيصر أغسطس والإسكندر الكبير. وبالتالي تنعكس الأوضاع. فبدلاً من أن تكون مركز الإمبراطورية العربية الموحّدة، ستصبح الموقع الأساسي لمملكة صليبية جديدة وموسَّعة تجعل من القدس جوهرة تاجها.

وفي كل الأحوال، كانت مصر خزان إمبراطورية صلاح الدِّين. وخلال السنوات التسعين الأخيرة، قام عبء التاريخ العربي ومجده على بذل الجهود بغية توحيد مصر وسوريا في إمبراطورية واحدة تتبع المذهب السنِّي، وتحول دون وجود أوروبي في الشرق الأوسط. وتصادف وصول صلاح الدِّين لسدّة الحكم مع هذا التوق للاتحاد، على الرغم من جهود الملوك الإفرنجة لمنعه. حاول ملك صليبي خمس مرّات، من سنة 1163 إلىٰ سنة 1169م، اجتياح مصر والسيطرة عليها للحؤول دون توحيد الأراضي العربية. حتى أن والد صلاح الدِّين بالذات سقط عن صهوة جواده خارج بوابة النصر في القاهرة خلال الحروب التي وقعت في مصر ضد الإفرنج. أما عمّه شيركوه فقد كان قائد الحملة التي غزت مصر وبالتالي سلّم هذه الأرض إلىٰ الإمبراطور في

دمشق. وفي نهاية المطاف، عندما تمّت الإطاحة بالإفرنج، أصبح صلاح الدِّين إمبراطور مصر.

لم تكن الوحدةُ الإنجازَ الوحيدَ في التاريخ العربي الحديث!! بل إن القرآن باركها باعتبارها قيمةً عقدية وسياسية.

ما الذي يمكن أن يضع حدّاً للملك ريك، هذا المحارب الجبار الذي وجد فيه ابن صلاح الدِّين ذاته الشخصية الكفيلة لجعله يسيطر على العالم، فيمنعه من السعي مباشرة للحصول على ذهب القاهرة؟ من يستطيع أن ينسى الغزو المخيف الذي شنّه ريجينالد دو شاتيون على الأماكن المقدَّسة في المدينة ومكة سنة 1182م؟ قد يكون هذا الملك العملاق نسخة باهرة عن شاتيون الذي لم يقتصر مسعاه على استرداد القدس فحسب بل أراد القضاء على الإسلام بحد ذاته. ولذلك، كانت كوابيس صلاح الدِّين على قدر كبير من الضخامة.

فماذا عن عسقلان؟

بهدف إيجاد حلّ لهذه المعضلة الاستراتيجية، استدعى صلاح الدِّين قادة جيشه وجمعهم في جلسة استشارية في مُنْعَزله الذي أقامه في الرملة وكان السؤال: هل الدفاع عن عسقلان ممكن؟ أَو إن أعدنا صياغة السؤال بشكل مغاير، هل كانت إمكانياتهم تتيح لهم الدفاع عن عسقلان والقدس في آن واحد وخوض حرب مزدوجة إذا حوصرت المدينتان في الوقت ذاته؟ إنّ الذود عن كل مدينة يتطلّب عشرين ألف رجل. فمن أي احتياطي ومن أي وحدات يمكن استدعاء هؤلاء الرجال؟

ما زالت ذكرى كارثة عكا حيّة في أذهانهم جميعاً، وقد شحُبَت وجوه قادة الجيش للتفكير في حصار آخر طويل الأمد ـ بصعوباته، وجوعه، والمجزرة التي سيذهبون ضحية لها، في نهاية المطاف، على يد الملك ريك الوحشي ـ، وقال قائد كردي ساخط يكنّى بالسمين ما يلي: «إن كنت تودّ الدفاع عن عسقلان، فما عليك غير الذهاب إليها بنفسك أَو ابعث أحد أبنائك.

دع أنذالك القذرين يقومون بهذه المهمة. لن يرافقهم أحد فنحن لا نستسيغ مصيراً كمصير عكّا».

كادت هذه العبارات الوقحة أن تسبِّب عصياناً. واختار صلاح الدِّين تجاهل هذا التمرّد، في الوقت الحالي، لعلمه أنّ التفرقة تكشف حالة الضعف التي آل إليه وضعه. ولكن أن يُنْعت رجاله ب-«الأنذال القذرين؟» انعدام الاحترام هذا أوقع الكآبة في نفس السلطان، فانسحب وحيداً وعزل نفسه داخل فسطاطه ليوم كامل كيف يمكن لرجل ينتمي إلىٰ عرقه الكردي الأبيّ أن يتفوّه بهذا الكلام؟ وأقام الصلاة لعلّه يجد فيها ما يرشده متخطياً نصيحة قادته. «اسْتَخار الله تعالى، فأوقع الله في نفسه أن المصلحة خرابها لعجز المسلمين عن حفظها من الفرنج». وبعد عذاب طويل، قرّر تخريب عسقلان وهجرها.

بعد هزيمة صلاح الدِّين في أرسوف بأربعة أيام، لم يجد مناصاً من تقسيم جيشه. ترك قوة رمزية لابنه البكر الملك الأفضل على مقربة من يافا بغية مراقبة جهود ريتشارد، فيما توجّه صلاح الدِّين بمعية شقيقه العادل إلىٰ عسقلان. ورافقتهما المعدات الثقيلة والقسم الأكبر من الجيش المسلم. وعقب مسير نصف نهار، وصلوا إلىٰ يُبْنى، وهي مدينة سامريّة تقع على قمة هضبة، تُعْرف لدى المسيحيين باسم إيبلين Ibelin ولكنّ معرفة صلاح الدِّين بها تعود لمسجدها العريق والجميل، ولأنها تضم مدافن بعض أصحاب النبي وبستانٍ للتين الدمشقي اللذيذ المذاق.

لدى وصولهم، أصدر صلاح الدِّين أمره لجنوده بأخذ قسط من الراحة، وفيما أسدل الليل ستاره، تزايد قلقه حيال قراره المتعلّق بعسقلان. وبعد التشاور مع ابنه الملك الأفضل، التفت نحو مستشاره الأوّل وقال له والتعاسة تغمره[1]: «والله لأن أفقد أولادي كلّهم أحبُّ إليَّ من أن أهدمَ منها حجراً

(1) مستشاره هو بهاء الدين ابن شداد صاحب السيرة الصلاحية، والنص في السيرة، ص 186.

واحداً. ولكنْ إذا قضى الله بذلك وعيّنه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً، فكيف أصنع؟». فقد تذكّر بأن الاستيلاء على عسقلان كان السِّناد الذي فتح له أبواب القدس منذ أربع سنوات خلت. لقد خيِّل له أنّه بتخلّيه عن عسقلان يخرِق وحدة الإمبراطورية، ويدير ظهره لإنجازات السنوات الثلاثين المنصرمة، ويسحق الحلم العربي الأحبّ إلى قلب العرب، ويفتري على مبدأ الوحدة المقدّس.

عندما يدير المرءُ ظهره للوحدة فإنما يدير ظهره للإرادة الطيبة ويختار طريق التشرذم والانقسام والألم والأسى والأنانية والسوء والجهل واليأس والكفر في العالم الخارجي وفي نفسه[1].

في اليوم التالي، أقام معسكره خارج المدينة. تجمهر العمّال للاستماع إلىٰ إعلانٍ عن مهمتهم المقيتة. وانتقل جنود السلطان من منزلٍ إلىٰ آخر لتجنيد المزيد من الأيدي العاملة في عملية الهدم. وتعالى صراخ عام. انتحبت النساء على هذا المصير الرهيب، وباعت الناس ممتلكاتهم بأبخس الأسعار، وشدّت الرّحال نحو مصر أَو سوريا في موكب حزين حاملات على ظهورهنّ ما غلا سعره وخفّ حمله. وبيعت عشر دجاجات بدرهم واحد.

إن تهديم مدينة قديمة أثيرة متينة البناء مشروع هائل. فقد كان عرض الجدران يصل أحياناً إلىٰ تسعة أَو عشرة أذرعة (أَو حوالي ثمانية عشر إنشاً). أما الجندي فقد كان يقيس الثخانة بشكل مغاير. ثخانة الأسوار تساوي طول رمحه الحربي. جذبت الأبراج اهتماماً خاصاً. اضطلع كل أمير بمهمة قيادة مجموعة من عمّال الهدْم، واستحوذ على أكبر قدر من الاهتمام برج الإسبتاريين الضخم المشرِف على البحر. مُلىء البرج بزنود الخشب في اليوم الأوّل من رمضان، وظلّت تشتعل طوال يومين كاملين إلىٰ أن أدرك الضعف مِلاطَها ووصَلاتِها

(1) يبدو أنه شعر، لكنني لم أعرف مصدره (المترجم).

وباتت حجارتها هشّة بما فيه الكفاية كي تنغرز فيها معاول عمال المناجم.

وفيما كانت أعمال التهديم تتقدم، أخذ السلطان يحثّ جنوده وعماله على بذل جهود مضاعفة. لكن الحرب قد أنهكتهم، ومن الطبيعي أن يبطىء العمّال من سكان البلاد في إزالة منازلهم ودفاعاتهم الخاصة! إلاّ أنّ صلاح الدِّين كان يخشى أن يصل خبر التدمير إلىٰ ريتشارد فيعجّل في شنّ هجومه. نُقل معسكر السلطان إلىٰ موقع أقرب للأسوار بحيث يتمكن الحمّالون والحمّارون من المشاركة في العمل.

واصل الأفضل ابن صلاح الدِّين إرسال رسائل يومية من يافا يرصد فيها تحركات ريتشارد الموضوع تحت المراقبة. أقام المسيحيون معسكرهم خارج أسوار مدينة يافا وتمتعوا، في جنائنها البديعة، بما توفر فيها من رمان وتين وعنب. وكان أسطولهم البحري قد قدم من عكّا محمّلاً بالتعزيزات والمؤونة ـ وبالنساء. وفيما بعد، ألقى كاتب مسيحي اللوم على السيدات ـ كما لو كان الأمر عبارة عن قصة جماعية لآدم وحواء. «جاءتهم النساء من عكّا كي تثير مشاعر الرجال وتحثّهم على الإكثار من المعاصي. فعمّ الفساد الجميع، وفترت حماستهم في أداء فريضة الحجّ، وأُهْملت الواجبات الدينية كلّها». عاد عدد من جنود ريتشارد إلىٰ عكّا على متن المراكب وانغمسوا في المزيد من الفسق والملذّات. لم يحصل جواسيس صلاح الدِّين على أي معلومة تختصّ بهذا التراخي. وظلّت المناوشات بين الطرفين حدثاً يومياً ولكنها تزايدت حدّةً مع دخول رمضان المبارك. وحلم صلاح الدِّين مرة أخرى بإيقاع الصليبيين في كمين ينصبه لهم في أحد الممرّات الضيّقة.

وفجأة أبلغه ابنه باتصال دبلوماسي جديد. مرّة أخرى، طلب همفريد الجميل، ابن همفري أوف تورون، هذا الاجتماع. فهل من الممكن أن يكون النزاع قد أتعب الصليبيين؟ اقترح الطرف الصليبي عندها أن يسلّم صلاح الدِّين المدن الساحلية كافة دون أي مقاومة. أما المقابل فلم يكن واضحاً. وبما أنّ

الصليبيين كانوا قد استولوا على المدن الساحلية الهامّة الواقعة إلىٰ شمال يافا وبما أنّ صلاح الدِّين كان يهدم عسقلان، فلم يتبقّ في المنطقة الجنوبية سوى حصني غزة والداروم الصغيرين.

اقترح بعض الأمراء قبول العرض بعد حصول المسلمين على أقصى ما يمكن من التنازلات. إلاّ أنّ صلاح الدِّين لم يحمل العرض على محمل الجد. والأكثر من ذلك، لم يكن يرغب في تسليم المدن الساحلية إلىٰ ريتشارد بهذه السهولة والانصياع، وبخاصةٍ مع سيطرة فكرة إمكان غزو مصر من جانب ريتشارد على هواجسه.

لكن السلطان استفاد من هذه المبادرة في تأجيل المعارك. أثارت المناوشات اهتمام صلاح الدِّين. ومع تضاؤل رقعة عسقلان يوماً بعد يوم، قاد قواته مرّة أخرى في زحفهم نحو الرملة.

وكتب الملك العادل لأخيه بخصوص محادثات السلام: «إننا نؤجل المواضيع قدر المستطاع. وسوف نطيل أمد المباحثات قدر استطاعتنا لمنحكم الوقت الكافي لإنهاء تهديم المدينة».